الظالم لنفسه ظلمًا يتعدى إلى غيره

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٧/٨/٢٤م

تقدّم الكلام في درس الجمعة الماضي على صنفين ذكرهما القرآن الكريم:

الأول: ظَلَم نفسه بالتقصير في جنب الله تبارك وتعالى، فارتكب بعض المحظورات، وقصّر في بعض الواجبات، فظلم نفسه حين حرمها ما أعدَّ الله تبارك وتعالى لخاصته وأحبابه من الكرامة، وأوقعها في ما يوجب الندامة.

الثاني: لم يكتفِ بظلم نفسه والتقصير في الواجبات وارتكاب المحظورات، بل تعدَّى بظلمه إلى الناس، فسرق، واغتصب، وآذى، ووقع في أعراض الناس، وأكل حقوق العباد... آذاهم وارتكب ما يشين في حقهم.

وذكرنا من القرآن الكريم أن الصنف الأول الذي لم يتعدَّ ظلمُه إلى الآخرين، إن هو تاب واستغفر، يتوب الله تبارك وتعالى عليه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]

أما الصنف الثاني الذي ظلم العباد، وبدلاً من أن يوصف بظلم نفسه ظلمت نفسه – وفرقٌ بين من يظلم نفسَه ومن تظلم نفسُه – فذاك الصنف تنتظره محاكمات عادلة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]

وبقي صنفٌ ثالث، أحببت أن يكون حديثُنا في هذه الجمعة عنه.

فالله سبحانه وتعالى كلَّف العباد بالصلاة والصيام والحج، فمن قصَّر في شيء من هذه العبادات، أو ارتكب فيها ما يُخِلّ، يكون ظالمًا لنفسه، فيتوب ويُعوِّض ما فات، والذي يسرق ويغشُّ ويوقع الناس في حبائل ظلمه وكذبه وخداعه، لا يُغفر له حتى يَرُدَّ المظالم إلى أهلها، وكلما اتسعت دائرة ظلمه، أوقفه الحقُّ في المحكمة العادلة وقوفًا يَذِلُّ فيه ويُهان.

وبقيت من العبادات عبادةٌ اعتاد أهل هذه البلاد أن يقوموا بها في مواسم الخير، لا سيما في شهر رمضان الذي يوشك موسمه الخيّرُ أن يُهِلَّ علينا بوجهه الأنور، وهذه العبادة تتعلق بالمال، وهي عبادة الزكاة.

وهنا وفي هذه العبادة المالية يظهر الصنف الثالث، إنه الصنف الذي لم يسرق أو يغتصب، ولم يقع في أعراض الناس، ولم يأكل أموالهم، ولم يعتدِ بالعدوان الصريح الواضح عليهم.

فهو ظالمٌ لنفسه من جهة أنها عبادة كُلِّف بها الفرد، لكنها من حيث الآثار والنتائج فيها ظلمٌ مُبطَّنٌ مستورٌ للآخرين، فقد جعل الله سبحانه وتعالى للفقراء حقًّا في مال الأغنياء، إنه حقٌّ مستور لا يعلمه إلا الله وصاحب المال.

وفي المال حقٌّ سوى الزكاة، فحقُّ الله تعالى في المال نوعان: **الزكاة**، وما يُخرجه العبد من ماله من **التطوع** والصدقة والإنفاق في وجوه الخير، وقد نصّ على هذا حديثه صلى الله عليه وسلم، فأخبر بأن في المال حقًّا سوى الزكاة.

هنا يظهر الصنف الثالث الذي وصفه الله سبحانه وتعالى بالظالم لنفسه، لأن التكليف توجّه إليه فيما توجّه إليه من التكليف بالعبادات، لكنه في النتيجة ومن حيث الآثار يتسبب في الحرمان واختلال موازين التكافل الاجتماعي، لترى بعد ذلك بئرًا معطّلة وقصرًا مشيدًا.

ألم يقسم صلى الله عليه وسلم حينما تحدّث عن ذلك الجار الذي يبيت من غير طعام وجارُه يملك أن يطعمَه ولا يُطعمُه؟

إنه نموذج لا يُراد بعينه وحسب، إنما يُنطلَق من خلاله إلى ميزان عامّ، حتى يوجد في مجتمع الإسلام التكافلُ الذي يحمل فيه بعضهم حمل البعض الآخر.

ومن هنا وصل القرآن الكريم في وصفه لمانع الزكاة إلى درجة الوصف بالتكذيب بالدين فقال: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١-٣]

هذا الصنف وصفه الله تعالى في القرآن بالظالم لنفسه، لكنه قَرنَ مع ذكر ظلمه لنفسه عقوبة عاجلة، حيث لم نجد هذا الوصف في حقّ من أورد الله ذكره كظالم لنفسه بمعنى المُقصِّر في الواجبات والمرتكب لبعض المحظورات.

واقرؤوا هذين النصين في كتاب الله:

١- قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧] والريح التي فيها الصرّ أي التي فيها البرد الشديد أو الحر الشديد أو الصوت الشديد، وإبقاء الدلالات في هذه اللفظة على عمومها أَولى، فقد ذكر لي مُتخصصٌ فلكيّ أن الإعصار يجمع هذه الظواهر الثلاثة معًا، فيكون إيراد الصرّ نوعًا من أنواع الإعجاز، حيث جمع في لفظة واحدة ما ينتج عن الإعصار من أثر.

وبأي شيء ظلموا أنفسهم حتى عاقبهم الله سبحانه وتعالى بإهلاك زروعهم؟

والقرآن يُفسِّر بعضه بعضًا، قال تعالى:

- ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ أي أصحاب بستانٍ وزرعٍ.

- ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي تحالفوا وأقسموا أن يقطعوا ثمر بساتينهم، وأن يحصدوا زروعهم قبيل الصبح، وقبل أن يستيقظ الناس، والصرْمُ يستعمل في اللغة عادة لقطع ثمر النخيل.

- ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي ولا يخصِّصون جزءًا للفقراء والمساكين.

- ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ جاءت تلك الريح المُهلِكة.

- ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي أصبحت كالأرض المحصودة التي قُطع نباتها.

- ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ، أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ أي إن كنتم عازمين، غير متردِّدين فيما تحالفتم عليه من التسبب بالحرمان للفقراء والمساكين.

- ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ من غير إحداث ضجيج يتنبّه إليه الفقراء.

- ﴿أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ، وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ أما الحرد فإنه عنفوان النفس وعُجبها وغضبها واعتدادها بنفسها... وأما هذا الجمع العجيب بين الحرد وقوله تعالى: ﴿قَادِرِينَ﴾ أي أنهم كانوا يشعرون بالقدرة على كل شيء في بستانهم، فهم أصحاب التصرف يفعلون في أموالهم ما يشاؤون.

- ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ فهذه ليست بساتيننا، قد تركنا بساتيننا خضراء، وها نحن نجدها هالكة سوداء، قد تهشمت وتقطعت واحترقت وهلكت، ثم تنبهوا بعد ذلك إلى إنهم في جناتهم وبساتينهم، و لم يتيهوا عنها، وتنبهوا إلى العدالة التي تتجلى في الكون، فقالوا:

- ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [القلم: ١٧-٢٧] أرادوا أن يتسببوا في الحرمان فحُرموا.

ومما يذهلك في هذا النص تكرارُ جذر "صرم" أي قطع، ولا يقال لصاحب العزيمة صارم إلا لأنه قطع باحتمال واحد:

﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ ، ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ ، ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ، أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾

فالنصُّ يعيد الجذر بدلالاته المختلفة ليقول للإنسان: إذا أردت أن تقطع ستُقطع، وإذا أردت أن تحرِم ستُحرم، وإذا أردت أن تُفقِر ستَفقر، وإذا أردت أن تُذِلَّ ستَذِلّ، وإذا أردت أن تهين ستُهان... لأن الجزاء يكون من جنس العمل.

فيا من اعتدّ بماله وتوهَّم أنه يمتنُّ على الفقير حين يخرج زكاة ماله ليحولها إليه، اعلم أن هذا الفقير ينقذك، وبعد ذلك لا تتوهم أنك أدَّيت حقَّ المال، لا والله، فالحرمان في المجتمع منتشر، والمحتاجون كُثر.

أنت في بَطَرِك وتَرَفِك وطغيانك وإسرافِك... ستسأل يوم القيامة عن مالك، والمحتاجون كُثر.

لو وفَّرت شيئًا من إسرافك هذا فوظفته لإلغاء الحرمان فإن الله تبارك وتعالى سيبارك لك.

ألم يحدثنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بحديث صاحب الحديقة الذي كان يَقسم نتاج حديقته ثلاثة أقسام: قسمًا يعيده إلى الأرض وإلى الحديقة، وقسمًا يعيده إلى أهله، ويعيد القسم الثالث في شؤون الخير وعلى الفقراء والمحتاجين؟

فحكى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة أن تسوق الغمامة إليه، وسمع شخصٌ صوتَ الملَك من الغمامة يقول: "**اِسْقِ حَدِيْقَةَ فُلان**".

تحولت ملائكة الله إلى خَدَمٍ، لأنه خَدَمَ عبادَ الله.

السماء جنديٌّ من جنود الله، قال لها الله تبارك وتعالى يوم الطوفان: أمطري، فأمطرت، وقال لها: أقلعي، فأقلعت، وقال للأرض: ابلعي ماءك، فابتلعت ماءها.

فمتى نفهم أن الكون من حولنا جنود لله؟

ومتى نفهم أن الأرض والسماء تأتمر بأمر الله؟

ومتى نفهم أن الاضطراب المحيطَ بنا إنما سببُه نحن، فإذا حصل خيرٌ فببركة طاعة الطائعين، وإذا انتشر الفساد والاضطراب فبسبب معاصي العصاة والفاسقين؟

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

٢- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥]

وجاء في الحديث الصحيح عن الصادق المصدوق سيدِنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: (**مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ**) أي ثعبانًا كبيرًا، (**لَهُ زَبِيبَتَانِ**) أي ما يشبه الزبيبتين، (**يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) أي يلتف عليه كحبل مشنقة.

هذا المال الذي توهم أنه يكرمه ويرفعه، سيتحول إلى ثعبان يلتف حول عنقه وبدنه.

ولقد رأيت يومًا من الأيام ذا جاه وسلطان، وهو يسخر من هذا الحديث ويقول: كفاكم حديثًا عن الشجاع الأقرع، وفي مقابلة أمثال هؤلاء نقول ما قال سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨] نحن نرى ما لا ترون، إنكم نظرتم إلى الأرض وإلى موطئ أقدامكم، وما رأيتم غير الأرض، ولكن الله تبارك وتعالى وسّع دائرة نظرنا، فرأينا الغيب والشهادة، رأينا الغيب بنور التصديق بما قاله الله تبارك وتعالى وما قاله نبيُّنا محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم.

فاضحكوا واسخروا وانتظروا بعد ذلك، فنحن أمة تؤمن وتصدق بما أخبر به ربها: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]

نحن أمة ينضبط سلوكنا وفق الشريعة، وقلوبُنا مصدِّقةٌ بما أخبر به عالم الغيب والشهادة، فليسخر الماديُّون كما شاؤوا وهم يدافعون عن نظام الضرائب على أنه خيرٌ من نظام الزكاة.

لا والله، إن الزكاة التي هي شريعة من شرائع الله، حينما تغيب عن المجتمع تضطرب شؤون المجتمع كله.

الزكاة تنقذ المجتمع من الحرمان، وتنقذ الغارم، وتنقذ المسافر الغريب، وتوزَّع في سبيل الله، ولا تُبقي في المجتمع مقطوعًا ولا محرومًا، ولا تؤخذ إلا ممن تكدَّس مالُه، ولا تؤخذ من آلة تعمل لأنها تعطي المجتمع بحركتها وأدائها...

إنها تحفز الإنسان حتى لا يكون كسولاً.

الزكاة حياة الأمة، وحين لا تكون الأمة معتنية بزكاتها ومنظمة لشؤون زكاتها سيبقى المال - حتى وإن أخرجه الأفراد مبعثرًا - لا توظيف له.

والأرقام المالية - لو أخرج أصحاب الأموال زكاتهم - ستكون كبيرة جدًّا.

أين الهيئات الأمينة التي تضع الزكاة في مصارفها، ولا تنقل الزكاة من البلدة، ويعود رَيعُها على أهل البلدة، فيعمُّ الخير؟

إذا امتلأت مساجدنا في شهر رمضان بصلاة التراويح فلا يعني هذا أننا قد أقبلنا إلى ساحة الصلاح، لا... فلا بد أن يُنتِج الصلاحُ الإصلاح، وإذا لم يُنتج الصلاحُ الإصلاحَ فإن ذلك يعني بقلب المعادلة أنه ليس بصلاح، إنما هو عين الفساد والاضطراب.

(مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ (يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ) يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]).

وأختم بقوله جلّ من قائل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ، كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ، وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ، وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥-١٩].

ردّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.